في القرن التاسع عشر

وتدخل قنصل فرنسة في ذلك

بقلم الشيخ سليم الدحداح

٢

تتمة

ولنعد الآن الى القنصل فانه لدى وصوله الى طرابلس حلّ ضيفاً على قيس قنصل فرنسة هناك ، وبقي عنده يومين . وقد زاره فيها اخوان من أسرة كسفليس ، وهي يونانية الاصل من جزيرة كورفو ، وكانا متولين قنصليات بقية الدول المسيحية في طرابلس ، بنوع ان الجنينة القائمة امام بيتهما كانت حافلة باعمدة اعلام هذه الدول اكثر منها بالاشجار المثمرة . وقد اسهب في الكلام عنهما وعن عائلتهما ووصف ملابسهما الاعتيادية والرسمية ، ووصف خاصةً جمال قرينة احدهما التي قال عنها «انها بالحقيقة ملكة الجمال وانه لم يجد مثيلةً لها في انحاء لبنان وسورية الّا مدام كتفاگو ، قرينة قيس قنصل فرنسة في حيفا ». وقد قال عن هذه الاخيرة «انها بالتأكيد ملكة حقيقية مزدانة بالحرير والكشمير والجواهر ، وعلى محياها هيئة اجتمع فيها الحياء المسيحي مع جزع الحريم بنوع بديع.»

ثم ترك طرابلس ، وصعد تصحبه حاشيته الى جبال الجبّة ، فوصل كوسي قتوبين ، حيث لقيه الاساقفة الثلاثة ، يحيط بهم مشايخ الجهات الشمالية . وقد خصّ منهم بالذكر شيخ بشرّي الشاب (ولم يبيّن اسمه) ، والشيخ شبل من مشايخ بشرّي وقد نسب اليه الخداع واختلاق الدسائس ، والشيخ بطرس

كرم[1] من اهدن ، ومعه ولداه مخايل ويوسف . وحال وصوله ابتدر الاساقفة والمشايخ بخطاب طويل بيّن لهم فيه سوء عاقبة تأخير الانتخاب البطريركي ، وانه حبًا بفضّ الخلاف قد اقنع الاساقفة الذين كانوا يطلبون اجراءه في كسروان بالحضور الى دير ميفوق الكائن في بلاد جبيل ، لانه في نقطة متوسطة بين كسروان والجبّة ؛ وانه يتأمل منهم ، اي الاساقفة الثلاثة ، ان يتبعوا مثل اخوانهم ويقنعوا من كلامه فيوافوهم الى ميفوق حيث يصير اجتماعهم وانتخاب البطريرك . وبعد مبادلة الاحاديث والبراهين بينه وبين الاساقفة وكبار المشايخ ، ولمّا ظهر له ان اكثر ما يمنع الاساقفة عن مبارحة قنوبين هو خوفهم من نهب هذا الكرسي من قبل مشايخ بشري ، تعهّد لهم بانه يبقى هو مع حاشيته محافظين على الكرسي وموجوداته . حينئذٍ اقتنع الاساقفة والشيخ بطرس كرم الذي ساعده كثيرًا ، وقام النائب الروحي فسلّمه مفاتيح الكرسي والخزنة البطريركية ، ثم سافر في الغد مع رفيقيه النائب الزمني ومطران طرابلس الى دير ميفوق . فبقي القنصل واستبقى المشايخ عنده .

فظلوا في ضيافته في الكرسي يومين ، ثم ودّعوه بعد ان وعدهم بردّ الزيارة . وبعد ذلك توجّه الى بشري فاستُقبل هناك بكل حفاوة ، وزار الارز ومعه اكثر من ثلاثين شيخًا ووجيهًا . واذ هم موجودون هناك وصل سيّاح من الانكليز ، وعلى رأسهم احد كبار اللوردة المشهور باسم المركيز دي سليكر ، فانزلهم القنصل في ضيافته . ومن هناك توجّه الى اهدن ، فحلّ ضيفًا كريمًا على الشيخ بطرس كرم . وهنا يسهب القنصل في وصف دار الشيخ وحسن ضيافته وكرم اخلاقه ، ويذكر ان له ابنين : مخايل ، ويوسف . فيطري هذا الاخير مادحًا شجاعته وحسن خلاله ، ويذكر ان اباه كان يعتمد عليه ويرجو ان يكون خلفه . واما مخايل الاكبر فيقول عنه « انه كان طنّاعًا ينتظر وفاة والده بفروغ صبر ليخلفه ، وحسودًا دنيّ الاخلاق يحقد على اخيه يوسف بسبب تفوّق هذا الاخير عليه ؛ وانه كان يرغب في احراز السلطة باية صورة كانت ،

---

١) قد غلط المؤلف بكتابة اسمه ، فانه ذكره في هذا الفصل ٦ او ٧ مرّات ، وفي كلّ منها يذكره باسم « الشيخ بطرس كرامه » . وهو سهو واضح ، فاصلحت اسمه .

وهو مستعدّ لبيع شرفه ودينه للوصول الى تلك السلطة»[1]. ويذكر القنصل ان من عوائد هذا الشيخ الوجيه استقبال كبار السيّاح في داره[2]

وقد قضى القنصل ليلته في دار الشيخ بطرس. وعند الصباح وصله رسول يحمل اليه كتاباً من المجمع الاسقفي في ميفوق، يخبره فيه الاساقفة انهم لدى اجتماعهم جميعاً في ميفوق باشروا اعمال الانتخاب. ثم رأوا الانسب اجراءه في قنوبين حسماً لكل نزاع، وحتى لا يبقى لاهالي جبّة بشري وجه للاعتراض. فقرروا القيام من ميفوق والمجيء الى قنوبين، وانهم حال خروج حامل التحرير من دير ميفوق قد بارحوه هم ايضاً قاصدين قنوبين.

فقرأ القنصل هذا الكتاب على الشيخ بطرس ونهض حالاً، فعاد بمن معه الى قنوبين. فوصل الكرسي في حال وصول جميع الاساقفة، وفي مقدّمتهم المطران انطون الخازن، وهو مرتدٍ جبةً حمراء بصفته شيخ الاساقفة. وكان بجيتهم حضرة الاب بلانشه اليسوعي.

فالتقاهم القنصل ورفاقه بكل احتفاء وهنأوهم على اتفاقهم، وبعد ان تناولوا طعام العشاء انفصل عنهم، داعياً لهم بان يتوفقوا ايضاً في الاجتماعات التي سيعقدونها منذ صباح اليوم التالي الى الوصول الى انتخاب بطريرك يسير على تقاليد البطاركة الراحلين. وفي اليوم التالي، وهو الثامن عشر من شهر

---

١) ويقول عن مخايل هذا انه كان على اتفاق تام مع المدّاع الشيخ شبل من مشايخ بشري. ويُضيف انه كان يوجد هناك، اي في جوار بشري، قسٌ اسمه نعمة الله أُخرج من حضن الرهبانية البلدية لسوء تصرفاته وفساد اخلاقه، وكان صديقاً للشيخ شبل وللشيخ مخايل اللذين كانا، بالاتفاق معه، يدسّان الدسائس احياناً لسمي القنصل ومنعاً لاتمام الانتخاب. ـ ولم يصرّح القنصل المؤلّف لا باسم عائلة الشيخ شبل، ولا باسم عائلة الراهب المطرود المكدّر. اما الشيخ مخايل بطرس كرم فهو والد البكوات الثلاثة بطرس واسعد وسليم الذين مثّلوا دوراً في ما بعد في عهد متصرفية لبنان الممتازة.

٢) لقد اخطأ حضرة الاب اسطفان فريحه البشلاني، في كتابه عن لبنان ويوسف كرم، اذ ذكر ان ولي عهد الملك لويس فيليب زار الشيخ بطرس، ظاناً ان لقب «جوانفيل» يختص بولي العهد، فخلط بين الاخوين. والحال ان الذي اتى الى الارز وحضر في امدن قران احدى بنات الشيخ بطرس سنة ١٨٣٦، هو البرنس دي جوانفيل ثالث ابناء الملك، لا ولي عهده الملقب بالدوق دورليان.

آب ، احتفل رئيس المجمع ، المطران انطون الخازن ، باقامة القداس الالهي . وبعد القداس تناول السادة طعام الصباح منفردين ثم اجتمعوا في الكنيسة وقفلوا الابواب وباشروا اجراء الانتخاب . وساد السكون في الكرسي البطريركي . واما القنصل فقد اجتمع بالاب بلانشه في غرفته واخذا يتبادلان الاحاديث عن حوادث اوربة ، وعن الآداب الفرنسوية ، والمجادلات الفلسفية والاجتماعية التي كانت قائمة في ذلك العصر في فرنسة . وظلا كذلك حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، فسمعا حينئذٍ بغتةً اصوات التراتيل والصلوات صاعدة من الكنيسة . وفُتحت ابوابها ، وقرعت الاجراس ، فاسرع القنصل والاب اليسوعي الى جهة الكنيسة ، فرأوا جميع الاساقفة خارجين باحتفال ، وعلى رأسهم السيد يوسف الخازن . فدخلو قاعة الاستقبال حيث تبعهم القنصل والاب بلانشه . ولمَّا فرغوا من التراتيل ، وكانوا قد اخذوا مراكزهم من عن يمين ويسار السيد يوسف الخازن ، تقدم رئيس المجمع المطران انطون الخازن ، وقال بصوتٍ عالٍ ، باللغة الايطالية ، ما تعريبه : « يا حضرة القنصل هوذا بطريركنا (مشيرًا الى السيد يوسف الخازن) فانكم انتم الذي عملتموه ! »

فتقدم القنصل والاب بلانشه من السيد البطريرك يوسف الخازن واخذا بركته ، وقدّما له التهاني ، ثم هنأا آباء المجمع على اتفاقهم وحسن اختيارهم .

وبعد برهة انسحب القنصل والاب اليسوعي الى خارج الكرسي وابتعدا عنه مسافة بضع دقائق ، وجلسا على ربوة هناك غير منظورة من الكرسي . واخذا يتحدثان تاركين الوقت اللازم للسيد البطريرك الجديد وللاساقفة لاجل الراحة ، واتخاذ كافة التدابير اللازمة استعدادًا لحضور المهنئين من اهل الجوار . وكان القنصل والاب بلانشه بغاية السرور من النتيجة التي وصلا اليها ، والاب المشار اليه ينسب كل اسباب النجاح لتدخل القنصل . فاجابه هذا مازحاً : « أرأيت يا حضرة الاب كيف ان الفلسفة واستعمال العقل بامكانهما خدمة الدين والمساعدة على فوزه . »

وطالت خلوتهما في ذلك المكان الذي كانا يتمتعان منه باجمل المناظر . وهما كذلك ، واذا باصوات صياح وقتال وطلقات نارية واغاني حماسية . وكانت

الساعة الرابعة فنهضا للحال متوجهين ناحية الكرسي ، فنظرا من بعد مئات من الاشخاص مسلحين بعضهم بالعصي وبعضهم بالسكاكين واكثرهم بالبوارید هاجمين حتى دخلوا الكرسي وتفرقوا فيه. فوصل القنصل والاب بلانشه ودخلا في اثرهم فرأياهم داخلين الكنيسة ، وقاعة الاستقبال ، وغرف البطريرك والاساقفة . فصاح بهم القنصل وظلّ يخترق صفوفهم حتى دخل غرفة السيد البطريرك . وكان المتمردون قد نزعوا الطاقية عن رأسه ، ومسكوه بشعره . فلما رأى البطريرك القنصل ، سلّمه خاتم البطركية . وكان يجاوب هؤلاء الهاشمين بكل لطف قائلًا : « اهكذا تتطاولون على رئيس طائفتكم ؟ »

فهجم القنصل ووقف بين هؤلاء الافراد والسيد البطريرك. فكان حاجزًا مانعاً الوصول اليه ، وصار يضربهم بيديه ويصيح بهم ويتهددهم وينذرهم بسوء عاقبة عملهم ، وكان الاب بلانشه من جهته يجري مثل ذلك. وكان كل من التراجمة والقوّاصة والطاهي والخدم والمكارين ، حاشية القنصل ، يدافعون عن الاساقفة ويضربون الهاجمين ويضيجون بهم. وكان القوّاصة مصوّبين الاسلحة النارية على هؤلاء المجانين ومنتظرين الاشارة من القنصل لاطلاقها واخيرًا تمكنوا من بعد ساعة واكثر من اخراج تلك الجماهير من الكرسي ، ورغماً من كثرة عدد الهاجمين وانواع التعدي التي قاموا بها لم يحصل تلف انفس ، فأخذ الشمامسة والخدم بالاعتناء بالسادة . امّا القنصل فانه رغماً عن تعبه قد امتطى جواده والتفت الى رؤساء تلك الجماهير قائلًا لهم : « ها انني متوجه الى طرابلس ، ومنها لبيروت ، وساعود ومعي نجدة قوية للاقتصاص منكم ، فاجعلكم عبرة لمن اعتبر ، وحينئذٍ تعلمون نتيجة التعدّي على البطريرك واهانة ممثل دولة فرنسة . » وظلّ سائرًا حتى قرية بريسات . ففي هذا الوقت كانت قد هدئت الخواطر وفهم اولئك الهاجون رداءة عملهم ، وخافوا النتيجة فلحقوا بالقنصل واحاطوا به واخذوا يترجّونه ويترامون على اقدامه ، ويطلبون منه ان يعود الى الكرسي متعهدين له بالعودة معه حتى يلثموا ايدي البطريرك والاساقفة ويطلبوا منهم السماح والمغفرة . اخيرًا بعد رجاء طويل ، وبعد صراخ الاستغاثة والبكاء والنحيب من هذا القوم ، رضي ان يعود معهم. فساد حينئذٍ

الفرح بينهم واخذوا يحدون باسم القنصل . ولمّا وصلوا الى الكرسي اخذوا يصيحون باسم البطريرك يوسف الحازن والاساقفة . ولمّا اطلّ البطريرك عليهم ، جثوا راكعين في ساحة الكرسي ، وطلبوا منه المغفرة مظهرين الندم على ما بدا منهم . فباركهم وقال لهم انه قد غفر لهم اكراماً للقنصل . وبعد ان لثموا ايدي البطريرك والسادة والقنصل والاب بلانشه ، انصرفوا وذلك بعد غروب الشمس . وقد حسن لدى القنصل حينئذٍ ان يُرسل تحريرًا الى الشيخ بطرس كرم في اهدن يخبره بنتيجة الانتخاب ، ويطلب اليه الحضور مع رجاله صباحاً احتياطاً لكل مفاجأة.

وكان قد استولى التعب على القنصل وبُحَّ صوته تماماً ، وكانت ثيابه ممزّقة ، وكذلك كانت حالة جميع السادة والاب بلانشه وتراجمة القنصل وحاشيته ، فاخذوا قسطهم من الراحة ثم ناموا غير مصدّقين بخلاصهم بتلك الصورة . وعند الصباح ، بينما كان القنصل وجميع سكان الدير حاضرين ذبيحة القداس التي قام بها غبطة السيد البطريرك ، وعند رفع الكاس ، سُمعت طلقات نارية واهازيج مثل التي كانت جرت في اليوم السابق . فتابع البطريرك اكمال الذبيحة بدون سرعة ولا تأثر . ولمّا اعطى البركة الاخيرة وخلع الملابس الحبرية ، طلع على السطح مع لفيف سكان الدير فنظروا من جهة نحو ١٥٠ رجلًا مسلّحين ، ومعهم الشيخ شبل والشيخ مخايل بطرس كرم ، وكانوا مظهرين على ذواتهم انهم حاضرون لتهنئة غبطته وللمحافظة على الكرسي . وقبل ان يصلوا الى الكرسي سُمع عن بُعد طلقات نارية واهازيج حماسية ، وبعد قليل وصل قوم آخرون ، وهم رجال اهدن وعلى رأسهم الشيخ بطرس كرم وابنه الشيخ يوسف ، ودخل القومان معاً الى الكرسي. فتقدّم الشيخ بطرس وابنه والاهدنيون ، وهنأوا غبطته والاساقفة ، وسألوا القنصل ماذا يأمر . فاختلى القنصل بالشيخ بطرس ، واوقفه على ما جرى في اليوم السابق . وبعد ان تداول البطريرك الجديد وكافة الاساقفة ، اتفقوا على مغادرة قنوبين مع القنصل والاب بلانشه . فطلب القنصل من الشيخ بطرس ورجاله المحافظة عليهم في الطريق . وبعد ساعتين نهض

البطريرك والقنصل والاساقفة جميعهم والاب بلانشه ، وقد احاط بهم الشيخ بطرس وابنه يوسف ورجال اهدن بالسلاح الكامل ، وغادروا قنوبين مجتازاً الى كسروان . ولما دخلوا اراضي بلاد جبيل ، عاد اكثر الاهدنيين الى بلادهم ، وظلّ الموكب البطريركي متابعاً سيره حتى زوق مكايل . فكان في انتظارهم الامير حيدر اسمعيل ابي اللمع ، قائمقام النصارى ، ومعه اربعمائة فارس وعدد كبير من المشايخ الخوازنة اقارب البطريرك وسائر مشايخ كسروان ورجالهم . واخذوا باطلاق العيارات النارية واجراء الالعاب وغناء الاهازيج المفرحة ، ولما وصلوا دير البشارة ترجّل البطريرك ، وكافة افراد الموكب ، وبعد ان استقرّ بهم المقام تقدّم القائمقام والمشايخ وهنأوا البطريرك وقدّموا عبارات الشكر للقنصل وللاب بلانشه .

وهكذا تمّ انتخاب البطريرك يوسف الخازن بعد وفاة سالفه بمدة ٨٦ يوماً[1] . ولم يتدخل المجمع الروماني المقدّس ، لان اعضاء المجمع الانتخابي لم يراجعوه بالامر .

اما القنصل فعاد في اليوم التالي الى بيروت ، وبعد مضيّ مدة ، ورده من السيّد البطريرك تحرير كله عبارات شكر وثناء ، ومما قاله فيه :

« انك بالرغم من اشغالك العديدة تركت مركزك وحضرت الى قنوبين وحافظت على الديمان فوقيته من النهب واستمريت ٢٢ يوماً متحملاً جميع انواع التعب ، فمكّنتنا من عقد مجمع الانتخاب الذي رفعنا الى هذا المقام البطريركي عن غير استحقاق منا ومثّمتنا بحمايتك وعدتَ بنا الى كسروان حيث نحن عائشون بكل امان مع اخواننا الاساقفة . »

كذلك ورد القنصل المشار اليه تحرير من المؤرّخ والخطيب الشهير گيزو ، وزير الخارجية وقتئذٍ في فرنسة ، يقول فيه :

« بمناسبة قرب نهاية مأموريتك في سورية يلذّ لي ان اجدّد لك عبارات محظوظية حكومة جلالة الملك لما اظهرته من الثبات والحذق بمدافعاتك عن

---

١) لم نعلم اين وجدت مجلّة « المنارة » ، التي تصدر في جونيه ، ١ في عدد شهر شباط من هذه السنة ، ص ١٦١ ان البطريرك يوسف الثامن الخازن ، موضوع كلامنا هنا ، قد انتُخب بعد ٣٦ يوماً من وفاة سالفه ! ! !

المصالح المهمّة التي ألقيت لعهدتك . ان حُسن مداخلتك في انتخاب البطريرك هي من اهم الخدمات التي قدّمتها لمنفعة سكّان لبنان المسيحيين.»

ولمّا انتهت مأموريتـه في بيروت ، سافر الى فرنسة ، وبمروره في باريس قابل وزير الخارجيـة المشار اليه ، فسأله هذا: « هل البطريرك رجـل المعي ؟» (*Est-il un homme d'esprit?*) فاجابه القنصل: «لا اعلم هل في الشرق كله رجل يصحّ فيه القول انه المعي (*Un homme d'esprit*) بالمعنى الذي نفهمه في اوربة. في الشرق يوجد رجال اذكياء جدًّا ، وحائزون على صفات متنوّعة وعديـدة بدرجة فائقة . لكن لا يوجـد عند هؤلاء الرجال نظرات عامّـة ولا سعة الحكم ولا الخاصّة الفلسفيـة التي تفقه الروابط بين الامور ، وبالاختصار ليس لديهم تلك الصفات التي تشكّل ما نسمّيه في اوربة الرجل الالمعي . » فاجابه وزير الخارجية المومأ اليه: « لكنّ انتخابه في كل حال عمل استاذ خبير ، يحقّ لك الافتخار به.»

وكان هذا الجواب الصادر من رجلٍ مثل گيزو اكبر شهادة على مقـدرة القنصل المؤلّف.

وقد روى الخوري منصور الحدتوني في « المقاطعة الكـروانية » حادثة هذا الانتخاب ، الا انـه وهم في بعض تفاصيلها . اما القنصل فهو شاهد عياني ، وقد كتب عما رآه بذاته. وهنا ختم القسم الثاني من تأليفه المنوّه به.[1]

وهذا الانتخاب هو الاخير الذي جرى في قنوبين او الديمان . وامّا ما تبعه من الانتخابات في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ ، و ٢٨ نيسان ١٨٩٠ ، و ٦ كانون الثاني ١٨٩٩ ، و ٨ كانون الثاني ١٩٣٢ ، فقد تمّت جميعها في كرسي بكركي في كسروان.

---

١) ان عهد بطريركية السيد يوسف الخازن لم يتجاوز التسع سنوات والشهرين. وبعد وفاته اجمعت آراء السادة الأساقفة على انتخاب مزاحمه القديم ونائبه الروحي السيد بولس مسعد ، فنكث بطريركًا ٣٥ سنة وخمسة اشهر مثل فيها دورًا سياسيًّا ودينيًّا مشهورًا ، وتوفي في ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠.